الندوة العلمية :الصحراء في الرواية العربية المعاصرة يوم الأربعاء 24 أفريل2024.

عنوان المداخلة: تحول الكتابة السردية من المتن إلى الهامش للتعبير عن قساوة الصحراء

– إهداء الصديق حاج أحمد الزيواني في رواية مملكة الزيوان أنموذجا–

إعداد: ط.د ريمة مسيخ/ جامعة باجي مختار –عنابة-

ملخص:

شكلت الصحراء منذ القدم البيئة الأولى للإنسان العربي، فهي المهد الأول له الذي يمثل انتماءه وتراثه العريق، كما حظيت بأكبر رقعة جغرافية في جل البلاد العربية، وهي بيئة دون مبالغة قاسية جدا، لكنها بالمقابل تكتنز كثيرا من الحكايات والقصص والأساطير التي جعلت منها فضاء يفجر مكنونات العديد من أبنائها القصاص والرواة، وتثبت إبداعاتهم في الكتابة عنها، فالصحراء فضاء واسع وغني جدا بالقصص والروايات التي تخصه، وقد عانى من قسوتها الكثير من أهلها ما جعلهم يعبرون عن ذلك في كتاباتهم، و الصديق حاج أحمد الزيواني واحد من أدباء صحراء الجزائر الذين عبروا عن قسوتها وجفائها، وذلك من خلال إهدائه المودع في روايته: مملكة الزيوان، وهو موضوع دراستنا في هذه الوريقات البحثية التي سنحاول من خلالها كشف مدى معاناة أهل الصحراء جراء قساوة طبيعتها ومناخها الجغرافي، وفي نفس الوقت مدى تأثر وافتخار أهلها بها وترسيخ ذلك في إبداعاتهم.

الكلمات المفتاحية: الفضاء– الصحراء– الرواية المعاصرة– الإهداء– النسق

Summary:

Since ancient times, the desert has formed the first environment for the Arab human being. It is his first cradle, which represents his affiliation and ancient heritage. It also had the largest geographical area in most of the Arab countries. It is an environment, without exaggeration, very harsh, but on the other hand, it contains many tales, stories, and legends that made it A space that unleashes the secrets of many of its sons, storytellers and storytellers, and their creativity is demonstrated in writing about it. The desert is a vast space and very rich in stories and novels that belong to it. Many of its people have

suffered from its cruelty, which has made them express this in their writings, and the friend Haj Ahmed Al-Ziwani is one of the writers of the Algerian desert. Who expressed its cruelty and barrenness, through his dedication in his novel: The Kingdom of Ziwan, which is the subject of our study in these research papers through which we will try to reveal the extent of the suffering of the people of the desert as a result of the harshness of its nature and geographical climate, and at the same time the extent to which its people are affected and proud of it and to consolidate this in Their creativity.

Keywords: space - desert - contemporary novel - dedication – format.

مقدمة:

لقد باتت الرواية المعاصرة مرجعا مهما لا يمكن تجاوزه ضمن مراجعة شخصية وكينونة الفرد، سواء من ناحية فكره تراثه أو معيشته ووجوده الأول، وقد شكلت الصحراء كموقع جغرافي شاسع وعريق جدا الفضاء الأول الذي وسم هوية وشخصية الإنسان القديم، فهذا الفضاء الواسع ماديا ومعنويا يحمل في جوفه تاريخ أمم، ويحكي قصص شعوب وقبائل، مثلت الصحراء مهدها الأول الذي يكشف بدايات الإنسان وخطواته الأولى. ومازالت الصحراء ليومنا هذا محل اهتمام ودراسة العديد من البحاث نظير ما قدمته وما تقدمه من خبرات وما تكتنزه من خيرات مادية ومعنوية أيضا، فهذا الفضاء يمثل هوية الإنسان البدائي ولازال ليومنا هذا يعد بطاقة تعريف للعديد من الأشخاص.

لهذا اهتم العديد من سكان هذه المنطقة الجغرافية وغيرهم بالكتابة عن هذا الفضاء وكل ما يخصه، بغية التأكيد على أهمية الالتفات لهذا الفضاء ودراسته دراسة تنصفه وسكانه، من خلال التعريف به وتعداد خيراته وممتلكاته الثمينة، والتي من شأنها جعل هذا الفضاء بؤرة اهتمام الكتاب والروائيين، والباحثين والدارسين، لأن به مكنونات تستحق البحث والدراسة، فهو فضاء زاخر بتيماته وعمق أصالته وتنوع ثقافاته، لهذا فإن استثمار هذا الفضاء يعد غنيمة لا تقدر بثمن.

وقد كان للرواية العربية المعاصرة باع في هذا المجال، فرغم إعراض الكثير من الكتاب عن الكتابة عن هذا الفضاء المهم جدا، فهو يحتل أكبر مساحة في جل البلدان العربية عموما، وبخاصة الجزائر ، وقد يكون سبب إعراضهم هو جهلهم بثرواتها وخباياها التي قد لا يبدع في وصفها غير أهلها وقاطنيها، رغم هذا كله فهي تتصف بالقساوة وصعوبة المعيشة فيها، ما جعل سكانها يعانون ويتذمرون من ظروف العيش التي تتوافر بها، وقد باح بذلك العديد من الروائيين الذين أخرجوا ما في جوفهم وجوفها من خلال الكتابة عنها وعن معاناة أهلها، وقد كان الروائي ابن الصحراء الجزائرية الصديق حاج أحمد الزيواني، واحدا من أبرز الروائيين الجزائريين الذين كتبوا عن هذا الفضاء وذلك في روايته "مملكة الزيوان " والتي كان موضوعها الأول الصحراء ، وقد لمح في عتبة الإهداء عن معاناة الصحراويين من التهميش والاستبعاد.

وقد خصصنا هذه الوريقات البحثية لدراسة هذه العتبة تحديدا، في محاولة منا مقاربتها نسقيا في ضوء تحليلها بما يستدعي آليات النقد الثقافي، اعتقادا منا أنه الأنسب لدراسة هذا الموضوع الشائك.

كما توضح تحول الكتابة السردية الروائية المعاصرة من المتن إلى الهامش، وسنرى من خلال تحليلنا مدى منافسة الهامش للمتن في إيصال مبتغى الروائي ومساعدة القارئ، فأيهما أسبق ياترى؟ وأيهما أكثر فاعلية؟

هذه الإشكالية وغيرها من التساؤلات المتفرعة عنها حتمت تسطير خطة منهجية تحدد مسار البحث وتنير طريقه، وقد كانت كالتالي، مقدمة عرفنا من خلالها بموضوع البحث وأهميته، ثم أسباب اختياره، بعدها ذكرنا المنهج والآليات المعتمدة في القراءة والتحليل، لنختمها بخطة البحث مفصلة، بعدها نتطرق للجانب النظري والذي سيكون عبارة عن جهاز مفاهيمي لأهم محددات البحث، عرضنا فيه مفهوم كل من المصطلحات التالية: الفضاء، الصحراء، العتبة/ العتبات، الإهداء، النسق الثقافي.، ثم يأتي الجانب التطبيقي للبحث، ووسمناه ب: النسق الثقافي في عتبة الإهداء، وهنا تبرز أهمية هذه العتبة وفاعليتها في خدمة النص ، كما تبين علاقتها بالمتن وخدمتها للقارئ أيضا قبل ولوجه النص، كما توضح تحول الكتابة السردية الروائية المعاصرة من المتن إلى الهامش، وهو لب بحثنا،

وسنرى من خلال تحليلنا مدى منافسة الهامش للمتن في إيصال مبتغى الروائي، فأيهما أسبق ياترى؟ وأيهما أكثر فاعلية

1-جهاز مفاهيمي لأهم محددات البحث:

1.1- الفضاء لغة:

جاء في لسان العرب أن: الفضاء الساحة وما اتسع من الأرض، والفضاء ما استوى من الأرض واتسع، والصحراء فضاء وجمعه أفضية، والمكان فاض أو مفض أي واسع.[1]

فمعنى الفضاء هنا لا يخرج عن كونه مساحة مت الأرض تتسم بالاتساع.

2.1- الفضاء اصطلاحا:

إن الفضاء الروائي أعم وأشمل من الفضاء الجغرافي، فالفضاء الروائي فضاء معنوي يتسم بالاتساع واللامحدودية أحيانا، كثيرة، في حين الفضاء الجغرافي يكتفي برصد الحركات والتفاصيل المادية، .ويكون لتقديم الفضاء في العمل الروائي ارتباط وثيق بمتن النص الروائي وهوامشه أيضا، وهذا ما ألفيناه في رواية "مملكة الزيوان "، فالروائي ركز في روايته على الصحراء كفضاء جغرافي مادي، وكفضاء معنوي يضمر الكثير والكثير من القضايا الإنسانية والتراثية، والثقافية والاجتماعية والسياسية أيضا، وهذا في كل من المتن والهامش، وسنفصل في هذه النقطة في جزئية خاصة من البحث.

2- الصحراء:

1.2- الصحراء لغة:

ورد في لسان العرب الصحراء من الأرض: المستوية في لين وغلظ دون القفّ، وقيل هي الفضاء الواسع، زاد ابن سيده: لا نبات فيه.[2]

2.2-الصحراء اصطلاحا:

---

1 ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص139

[2]-ابن منظور، لسان العرب، مادة صحر، ص 1450.

مثلت الصحراء في زمن مضى البيئة الأولى للإنسان العربي، وملهمة الشعراء الأولى وشاحذة هممهم وقرائحهم، إلا أن الوضع تغير في عصرنا الحالي، فبعدما كانت الشعر ديوان العرب جاء الرواية المعاصرة لتنافسه وتأخذ مكانته، إبداعا ونقدا.

والصحراء منطقة جغرافية، تمتاز بندرة الأمطار ومعاداة الطقس فيها للحياة النباتية والحيوانية، فهي أرض رملية قاحلة، وهي في ذات الوقت تحمل معنى عميق لقلق وتوتر الفرد الصحراوي المستمر، فظروف المعيشة القاسية هي ما جعلته كذلك.

الصحراء إذن مكان وفضاء رحب، رغم قساوته وصعوبة العيش فيه،إلا أنه استطاع أن يجذب إليه الإنسان ويغريه بسحره وعجائبيته وحكاياته وقصصه اللامتناهية، فهي تمثل « عمق ثقافي ومعتقدي لأبناء المنطقة«، من هنا انطلق ثلة من الروائيين والنقاد في وصف هذا المكان، على اعتبار الوصف التقنية الوحيدة التي تعبر عن هذا الفضاء، فهي وسيلة الروائي الأولى.

وبعد الروائي يكون للناقد رأي ومفهوم أيضا للصحراء، وتختلف نظرة النقاد كل حسب توجهه ورؤيته، فنظرة الناقد صلاح صالح مثلا والذي أفرد مصنفا خاصا بالصحراء وسمه ب " الرواية العربية والصحراء "كانت نظرة شمولية، حيث يرى أن الصحراء " أكثر البقاع اليابسة اتساعا، وأكثرها صلة بفكرة اتساع المكان واتشاحه باللامحدودية والأبدية "[3]

فالناقد هنا انطلق في نظرته للصحراء كمكان وفضاء روائي، من طبيعتها وتكوينها الجيولوجي، ومن تركيبتها الجغرافية، فهي مكان كبقية الأمكنة، وقد تشترك مع غيرها في بعض الصفات، كالاتساع مثلا والذي تشترك فيه مع البحر، كما يعدها صلاح صالح " من أبرز الأقاليم الجغرافية التصاقا بوجدان سكان المنطقة العربية "[4]

3- صلاح صالح، الرواية العربية والصحراء، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1996، ص6.

4- ينظر المرجع نفسه، ص نفسها.

وهو بهذا انتقل من نظرته المادية إلى نظرته المعنوية الوجدانية للمكان، فالصحراء ليست مجرد مكان واسع وشاسع، بل هي حياة وكيان ينطوي على الكثير من مكنونات الإنسان العربي، ونخص بالذكر أهل المنطقة العربية الصحراوية.

3- العتبة:

عتبات النص بمفهومها البسيط هي مجموعة علامات ودلالات تسبق المتن، تحيط بالمدونة، وتسيّجها كيفما كانت تلك المدونة، إبداعية أم نقدية، شعرية أم نثربه، تعمل على تكملة معنى النص الذي يليها وتسهم إسهاما جليلا في فهمه وتفسيره، فهي المدخل الأول لكل نص وأوّل ما تُبصره عين المتلقي، وهي كذلك الملاذ الذي يأخذنا إلى عوالم النص وتدفعنا بجاذبيتها وسحرها إلى الغوص في مكنونات المتون، مثلما يفعل غالبا الغلاف والعنوان الرئيس ثم العناوين الفرعية بعدها.

بعد التطور المعرفي الذي شهده العالم ومس الأدب وفنونه أصبحت هناك دراسات معمقة تهتم بكل ماله علاقة بالنص، فالدراسة المعاصرة انفتحت على مفهوم النص ثم اتسعت لما هو أبعد منه ، وهو ما يعرف بعتبات النص، فلم يكن هناك اهتمام بها " قبل توسع مفهوم النص، ولم يتوسع مفهوم النص إلا بعد أن تم الوعي والتقدم في التعرّف على مختلف جزئياته وتفاصيله، وقد أدى هذا إلى تبلور مفهوم التفاعل النصي، وتحقق الإمساك بمجمل العلاقات التي تصل النصوص بعضها ببعض، والتي صارت تحتل حيزا هاما في الفكر النقدي المعاصر، وقد كان التطور في فهم النص، والتفاعل النصي مناسبة أعمق لتحقيق النظر إليه باعتباره فضاء، ومن ثم جاء الالتفات إلى عتباته "[5]

فدراسة العتبات إذن جاءت تبعا لتوسع مفهوم النص الذي أصبح لا يدرك لذاته، بل بالنظر إلى كل ما يسيجه من علامات، وهي عبارة عن مداخل تتيح العبور للنص واجتيازه، فهي تنبه القارئ وتمنحه إشارات إليه، وقد عرفت بعدة أسماء من مثل: الرؤوس الثمانية قديما، هوامش النص، النصوص الموازية، سياجات النص النصوص المصاحبة، المكملات، المناص، وعتبات النص التي أقرها الناقد الفرنسي "جيرار جينيت"، ولعلها التسمية الأكثر تداولا بين النقاد الغرب والعرب.

5-مصطفى أحمد قنبر، الإهداء دراسة في خطاب العتبات النصية، المركز الديموقراطي العربي، برلين، ألمانيا، ط1، 2020، ص: 15/14 .

ويعتبر هذا الكتاب- عتبات- لجيرار جينيت محطة رئيسية لكل عمل يسعى إلى فك شفرات خطاب عتبات النص، ويقصد به «مجموع النصوص التي تحيط بمتن الكتاب من جميع جوانبه: حواش وهوامش وعناوين رئيسية وأخرى فرعية وفهارس ومقدمات وخاتمة، وغيرها من بيانات النشر المعروفة التي تشكل في الوقت ذاته نظاما إشاريا، ومعرفيا لا يقل أهمية عن المتن»[6] » .

كل هذه العلامات تلعب دورا مهما في تأويل النص وتعمل على توجيهه الوجهة التي تجعل القراءة سليمة ومركزة تقترب من قصدية المؤلف وتشير إلى مضمونه، ثم تتيح الفرصة للمتلقي لإعادة إنتاج النص بما تمليه ثقافته وزاده المعرفي، وهذا ما سنجده في عتبة الإهداء للحاج أحمد الصديق في روايته "مملكة الزيوان "، وهذا ما سنعمل على تحليله وقراءته قراءة نسقية ثقافية.

4-الإهداء:

إن المعنى العام لهذا المصطلح يحيل ولا شك إلى معنى جميل يفرح به أي إنسان، ويأخذنا مباشرة إلى قوله ﷺ: "تَهَادُوا تَحَابُوا" (البيهقي في سننه الكبرى كتاب الهيبات الحديث رقم 11964)، مما يبيّن أثر الهدية في النفوس البشرية ووقعها في القلب، فمن منا لا يحب أن يُهدى، ولو كلمة شكر بسيطة؟ تُلقي في نفسه أثرا جميلا، وتترك انطباعا محمودا، فهي بذلك -الهدية- تحمل أبعادا عديدة، بعدا اجتماعيا، يوطد ويحسن العلاقات بين الأفراد، بعدا سياسيا كثيرا ما يمتاز بالمجاملات، بعدا ثقافيا يحمل رسائل مشفرة وتضمر أنساقا ثقافية مختلفة، كما هو الحال في إهداء الزيواني.

4.1 الإهداء لغة:

جاء في المعجم الوجيز «(أهدى) الهدية إلى فلان قدمها أو بعث بها إليه، (هادى) فلان فلانا: أرسل كل منهما بهدية إلى صاحبه (الهدية) ما يقدم من التحف والألطاف للمجاملة (ج) هدايا. "[7]

6-عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، دط 2000، ص:16.

7- مجمع اللغة العربية المعاصرة، المعجم الوجيز، باب الهاء، ص: 647.

فالإهداء إذن مرتبط بالهدية وما تحمله من مكانة في النفس ناتجة عن المشاعر والمعاني التي تطبعها، كالمحبة، والتقدير، والاحترام، وربما كانت من باب المجاملة اللطيفة، وربما كانت صرخة مواطن أحس بالظلم وعانى التهميش، مثلما سنجد في إهداء الزيواني.

وتشغل الهدية حيزا واسعا في النشاط الإنساني الذي تطور وتغير مع مرور الزمن، فنجدها في العلاقات السياسية سواء الخارجية بين الدول والحكومات، أو العلاقات الداخلية بين أعضاء الحكومة الواحدة والبلد الواحد بعدما كانت بين الملوك، والسلاطين، والأمراء، وغيرهم من القادة، والسادة، والحكام قديما، وهي قديما أو حديثا تسعى لتحقيق أغراض متعددة ومختلفة، كالولاء، البر، طلب الصلح، امتنان، المودة... وقد تكون عبارة عن رسائل مشفرة تحمل ثقافة معينة وفكر يحمل خلفية صاحبه، وهذا ما وجدناه في إهداء الزيواني.

فقد ارتبط الإهداء بالسياق الثقافي للواهب خاصة في المجال الأدبي المعاصر، رغم أنه بالأساس فعل فردي شخصي لأن معظم الهدايا تكون على أساس وجود علاقة بين الطرفين: الواهب والمتلقي.

والهدية عموما تحكمها علاقات مباشرة وغير مباشرة ف "العلاقة المباشرة تربط بينهما وفق سياقات خاصة تدخل في إطار العائلة أو الجيرة أو الزمالة، وغير المباشرة وفق سياقات عامة داخل النسق العام للعلاقات الاجتماعية للجماعة المعينة "[8] .

فالإهداء عملية تواصلية لها امتداد بعيد في الأعمال الأدبية الغربية والعربية، ما يثبت أهميتها ودورها الفاعل في عملية التواصل بين الأفراد، ليس فقط بين المهدى والمهدى إليه، بل إن المتلقي أيضا معني بذلك الإهداء، الذي «يكشف عن تبادل ضمني بين الكاتب، والقارئ، وكأنه دعوة إلى جمهوره لمساندته، وموافقته أو على الأقل مناقشته فيما يذهب إليه ".[9] مثلما هو الحال مع إهداء الزيواني.

5- النسق الثقافي:

8- موريس غودولييه، لغز الهبة، تر: رضوان ظاظا، دار الهدى، دمشق، ط1، 1998، ص32.

9- عيسى عودة برهومه، بلال كمال عبد الفتاح، سيميائية الإهداء دراسة في نماذج من الرواية العربية، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الإسكندرية، مج 4، ع 32، دس، ص: 675.

جاء في لسان العرب: "النّسق من كل شيء ما كان على طريقة نظام واحد عامّ في الأشياء.. و ابن سيدة : نسق الشيء ينسقه نسقا ونسّقه نظّمه على السّواء. والنّحويون يسمّون حروف العطف حروف النّسق لأنّ الشيء إذا عطفت عليه شيئا بعده جرى مجرى واحدا، وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال ناسقوا بين الحج والعمرة، قال شمر معنى ناسقوا واتروا، يقال ناسق بين الأمرين أي تابع بينهما، وثغر نسق إذا كانت الأسنان مستوية. "[10]

وقدّم لنا عبد اللّه الغذامي في هذا السياق مفهوما آخر للنسق، فقال: " إن كلمة النسق هي كثيرة الاستعمال في خطابات عدة سواء في النظام العام أو الخاص، وقد يكون معنى هذه الكلمة بسيطا وهو ما كان على نظام واحد، وقد يكون مرادفا لمعنى البنية حسب مصطلح دي سوسير "[11].

مصطلح النسق الثقافي كما هو واضح مركب من لفظتين، النسق وقد سبق تعريفة ، والثقافي وهو المشتق من الثقافة، وهو مصطلح لقي تعريفات ومفاهيم عديدة اختلفت باختلاف النقاد والعلماء والمفكرين ورؤاهم، سنكتفي بواحد منه.

عرّف مالك بن نبي الثقافة قائلا: " هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي يعيش فيه. "[12]

المثقف إذن لا يتكلم باسمه الخاص، ولا يقدم رؤية ذاتية خالصة للواقع وللممكن، " بل إنه يعبر عن حركة اجتماعية وعن قيم تتبناها ذات جماعية، قد تكون طبقة أو فئات اجتماعية أو شعبا "[13]

10- ابن منظور، لسان العرب، مادة نسق، ص:442.

11- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2016، ص79.

12- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ط4، 2000، ص:74.

13- منوبي غباش، المثقف في مواجهة السلطة، مجلة مقاربات فلسفية، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر، ع04، جوان2015، ص60.

. فالنّسق الثقافي هو مجموعة من الأنظمة والقوانين والقواعد العامة التي تحكم الإنتاج الفردي للنّوع وتمكنه من الدلالة، كما أنه لا ينفصل عن الظروف الاجتماعية والثقافية السائدة كونه تشترك في إنتاجه عدة عوامل كالقوى الاجتماعية والثقافية من جهة، والإنتاج الفردي للنوع من جهة أخرى فنجد النسق يُربط مباشرة بالثقافة فالعلاقة بينهما حتمية.

في ختام هذه الجزئية وتأسيسا على ما سلف ذكره، نخلص إلى عدة نقاط، وهي:

-الفضاء يعتبر مكانا واسعا وشاسعا، ويحمل مفهوما ماديا وآخر معنويا، وكثيرا ما يوظف رديفا لمصطلح المكان.

-الصحراء مصطلح بدره يحمل معنيين، مادي باعتباره مكان يحتوي أشياء من التراث أو غيره، معنوي بوصفه فضاء واسعا يحمل دلالات عدة ومختلفة تحكي ممتلكات أشخاص معينين، ثقافة، تراث، عادات، تقاليد....

-العتبة محطة مهمة في كل نص، خاصة الإبداعي لأنه غالبا ما يحمل توجها فكريا ينتقل من الخاص ‘إلى العام.

- الإهداء عتبة مهمة جدا قد تحمل مالا يحمله النص بحد ذاته، فهي عبارة عن نص صغير يحيل إلى ما لاحد له من الدلالات والتأويلات، وللقارئ في ذلك نصيب وافر.

- النسق الثقافي دراسة معاصرة جاءت لتتكفل بقراءة النصوص المعاصرة وقد أحدثت نقلة نوعية بانتقالها من قراءة النص إلى قراءة هوامشه.

النسق الثقافي في عتبة إهداء الزيواني:

عادة ما نجد في الكتب (قصص- روايات – دواوين...) نوعان من الإهداء: شخصي يشمل أفراد العائلة، الأقارب، الأصدقاء المقربون، الزملاء، الأحباء بصفة عامة، وغالبا ما تكن هذه النوعية من المهدى إليهم مجهولون من طرف المتلقي، وليس من الضروري معرفتهم أو البحث في ذلك، وتشيع أكثر في المدونات الإبداعية والنقدية. وإهداء عام يكون لفئة معينة تجمع بينها وبين المؤلف علاقات مختلفة: الاحترام، الامتنان..، كأن يهدي الكاتب كتابه إلى أستاذه عرفانا وامتنانا لفضله في تقديم العلم، أو مساعدات أخرى يعترف له بجميله من خلال هذا الإهداء، وقد يحمل

الإهداء رسالة إلى أشخاص بعينهم دون معرفتهم معرفة خاصة، مثل إهداء الصديق حاج أحمد (الزيواني) في رواية مملكة الزيوان الذي يقول: "**إلى كل الذين ظلمتهم الجغرافيا بتضاريسها العبثية المقرفة... لكنهم آمنوا بنبوّة الرّمل...** "[14]، والمتمعن جيدا في هذا الإهداء يدرك منذ الوهلة الأولى أنه يتحدث عن أهل الصحراء وعن ظلم المجتمع لهم، وقبل ذلك ظلم الجغرافيا لهم، وهو بهذا يثير قضية مهمة جدا وحساسة في الوطن العربي ، والجزائري بخاصة، فهي قضية شائكة وحساسة تضمر أنساقا ثقافية خطيرة لعل أهمها التهميش والتفرقة، والتحقير من طرف الآخر، أو لنقل قضية المركز والهامش التي ركز عليها النقد الثقافي دراسة وتحليلا، والفراغ الذي يعتري هذا الإهداء ما هو إلا دعوة مفتوحة للتأويل والتفسير من المهدي إلى المتلقي الذي قد يستعين به لطرح القضية مجددا ومناقشتها، فتصبح بذلك عتبة الإهداء نصا قائما بذاته يستدعي تحليلا مركزا، فكما قلنا سابقا في تعريف مصطلح الإهداء كنص موازي، بأن الكاتب يريد من خلال إهدائه توجيه رسالة للمتلقي يطلب منه مساندته ودعمه لقضيته، ومشاركته الرأي السديد الذي من شأنه أن يصل للرأي العام ويعزز موقفه، وبالتالي نجد أن القضية انتقلت من رأي خاص إلى رأي عام، كل هذا من خلال عتبة الإهداء، والتي أثرت دون شك في المتلقي قبل ولوجه المتن .

كنا قد أشرنا في تعريفنا للصحراء كفضاء مادي، أنه يتميز بصعوبة وقساوة العيش فيه نظرا لطبيعتها الجغرافية، وهذا ما أكده الروائي في إهدائه بقوله: (**إلى كل من ظلمتهم الجغرافيا بتضاريسها العبثية المقرفة...**)[15]، فهو يصرح هنا بظلم شديد يعيشه أهل الصحراء، ولسوء حالهم ومعاناتهم وظف الروائي لفظة العبثية للدلالة على نمط المعيشة غير المستقر وغير المريح، بل والمقرف كما أردف بقوله حين أضاف لفظة "المقرفة "، فهو هنا يصف تركيبة الصحراء بكل بشاعة متهما الجغرافيا بالظلم، وهي صورة بلاغية جمالية تضمر أنساقا ثقافية تعري حقيقة الصحراء وحقيقة ظروف الحياة فيها، فتكشف لنا هذه الصورة نسق التهميش والغبن، فلا أحدمن أهل الصحراء اختارها موطنا له، ولا ذنب له في كونه يعاني الكثير كي يثبت ذاته ويؤكد وجوده، فالقارئ لهذا الإهداء يدرك منذ

14-الصديق حاج أحمد (الزيواني)، مملكة الزيوان، دار فضاءات، عمان، الأردن، ط1، 2015، ص: 02.

15- المرجع نفسه، ص ن.

الوهلة الأولى أن الروائي يلقي اللوم على الطبيعة التي رآها ظالمة ومجحفة في حق الفرد الصحراوي، ولكنه في الجزء الثاني يؤكد على قوته وعزيمته حين يقول: (**لكنهم آمنوا بنبوءة الرمل**...)[16]

فهذه العبارة بدورها عبارة عن صورة بلاغية جمالية تضمر نسقا ثقافيا مستترا خلف تلك الجمالية، وهو نسق التحدي، ونسق العزيمة والمثابرة، فالفرد الصحراوي استطاع مع قساوة الطبيعة التي تحتضنه أن يثبت جدارته وقدرته على تحدي الظروف وتكييفها بما يخدم ذاته بالدرجة الأولى، وبالتركيز على المجال الأدبي والفكري الثقافي نجد الكثير من الأدباء والكتاب وضعوا بصمتهم وأثبتوا وجودهم إبداعا وفنية، فهناك الكثير من أسماء الأدباء المبدعين تعود أصولهم للصحراء، نذكر منهم: إبراهيم الكوني من الصحراء الليبية، والروائية المغربية زبيدة هرماس صاحبة رواية عشاق الصحراء، والروائي حسونة، والحاج أحمد صديق الجزائري الذي أبدع في الكثير من الأعمال من بينها رواية مملكة الزيوان، ولهذا أكد الروائي في إهدائه على أن الصحراوي يبدع رغم معاندة الظروف، فعلى قدر الأزمة تولد الهمة، فالصحراء في إهداء الزيواني مثلت أيقونة الموت والحياة في نفس الوقت، ففي شطر أعلن الروائي انطفاء الحياة، وفي الشطر الآخر من الإهداء أعلن الحياة من جديد حياة ملؤها التحدي والأمل في الله سبحانه وتعالى، وذلك حين شبه صبرهم وحلمهم وعزيمتهم بحلم وصبر وعزيمة الأنبياء، ففي عبارة نبوءة الرمل دلالة على ذلك، فلا أحد ابتلي بقدر ابتلاء الأنبياء والرسل، وقد عاشوا في الصحراء وتحملوا قساوتها، والحقيقة أن هذا تشبيه بلاغي رائع، فبعد أن بدا الروائي ناقما وساخطا على طبيعة الصحراء في الجزء الأول من إهدائه، عاد ليتدارك ذلك في الجزء الثاني من الإهداء الذي بين فيه رضا الفرد الصحراوي وتحديه وصبره الذي جعل منه فردا صامدا، فردا مميزا تأقلم مع وضعه الذي لم يختاره بالأساس بل امتحن فيه، تماما كامتحان الأنبياء في صبرهم على تأدية رسائلهم، عليهم السلام جميعا.

الصحراء إذن مثلت قلقا مستمرا وبحثا متواصلا عن الذات الصحراوية ومحاولة إثبات جدواها وأحقيتها في الوجود والتمتع بكل الحقوق وفي جميع المجالات، سياسية، اجتماعية، ثقافية....، وهذا

16- المرجع نفسه، ص ن.

ما خلق الصراع بين الفرد والسلطة، أو لنقل بين المركز الذي تمثله السلطة، وبين الهامش والذي يمثله الصحراوي كواحد من بين المهمشين.

وفي حقيقة الأمر تعد هذه القضية الحساسة جدا من أهم وأبرز القضايا التي ركز عليها النقد الثقافي في تحليله للنصوص المعاصرة، فعالم الصحراء كثيرا ما ينظر إليه على أنه فضاء مغلق فيه تنتهي الحياة، وقد يجرده الكثير من حقه في ممارسة النشاطات المتعلقة بالثقافة والتاريخ وغيرها، بحجة انغلاقه وانعزاله عن العالم الآخر ، العالم المتطور والمزدهر والمطلع على كل مستجدات العصر، وفي هذا تحقير واضح للأنا، فاستعلاء الآخر وأنانيته يخلق العديد من المشاعر والمواقف المختلفة التي تعتبر أنساقا ثقافية مضمرة رسخت وقبعت في المجتمع بفعل الأفكار والخلفيات الخاطئة التي تشكلت عن الصحراء، ومررت بفعل جمالية النصوص التي كثيرا ماكانت تصف الصحراء على أنها منطقة جغرافية تنعدم فيها أدنى مستويات المعيشة الكريمة، فقد تولد هذه الأفكار لدى الصحراوي كراهية، كما قد تولد شحناء، أو ربما خلقت نقصا أو عقدا، وعلى العكس من ذلك فقد تولد تحديا ومواجهة ، وقد تشحذ الهمم وتزيد من إصرار وعزيمة النفوس.

وهذا ما يعززه قول الزيواني في إهدائه: لكنهم آمنوا بنبوءة الرمل[17]، فالرمل كعنصر مادي، عنصر حيوي ومحفز على الصبر، فقد كان الأنبياء قديما يستمدون قوتهم منه، ونحن نعلم أن السفر قديما كان على الجمال، ومعروف جدا أنه يضرب به المثل في الصبر والتحمل، كيف لا وهو من كان يقطع أميالا وأميالا في الصحاري، ويقضي شهورا ليصل للمكان المراد، كل هذه التحديات تجعل من الصحراء فضاء رحبا يتسع وينغلق على حسب إرادة الفرد وعزيمته، وقد ركزنا في دراستنا على عتبة الإهداء لأنها كانت بمثابة إشارة، أو رسالة مشفرة تلمح إلى ما هو مقصود في متن الرواية، فالعلاقة بين المتن والهامش علاقة ترابط وتكامل.

17- الصديق حاج أحمد (الزيواني)، مملكة الزيوان، ص2.

الخاتمة:

رغم تركيزنا في دراستنا المتواضعة هذه على الإهداء كعتبة مهمة في الأعمال الأدبية المعاصرة اليوم، سواء الإبداعية منها أو النقدية، إلا أننا تمكنا بصورة عامة من معرفة محتوى النص، ذلك أن الهامش بات نصا مصغرا يحيل ويشير إلى نص أكبر منه، تجمعهما علاقة وطيدة، علاقة تكامل واتصال غير مباشر أحيانا، لأنها ترتكز على الترميز والتلميح والإشارة..، وكلها من تقنيات النقد الثقافي الذي يلمح ولا يصرح، كي يترك للقاريء الفطن مهمة التأويل والتحليل بما يحمله من زاد ثقافي منفتح على علوم ومعارف عدة.

وقد تضمن الاهداء نسقان متناقضان، الظلم/ رفع الغبن، الرضوخ والاستسلام/ الصبر والتحدي....، وهي ثنائيات ضدية اشتغل عليها النقد الثقافي في تحليله للنصوص السردية المعاصرة، فهذه الأخيرة أصبحت تضمر أكثر مما تعلن، وذلك لأسباب عدة منها الحساسية السياسية والقوانين الجائرة التي تحكم جل البلدان العربية، لهذا أصبحنا نقرأ نصوصا ملغمة، لا يستطيع فك شفراتها إلا المتلقي أو القاريء النموذجي، ورواية مملكة الزيوان للحاج أحمد صديق واحدة من الأعمال السردية المعاصرة التي أضمرت الكثير من الأنساق بداية من هوامشها، كما ألفينا ذلك في عتبة الإهداء.

الكتابات الصحراوية خاصة الروائية منها قليلة مقارنة مع غيرها، فهي لم تكن باتساع ذلك الفضاء الصحراوي وثرائه المادي والمعنوي، وانفتاحه الفكري والمعرفي، غير أن رواية مملكة الزيوان حاولت أن تصف لنا الفرد الصحراوي في مملكته، مملكة الزيوان، وأعطته أبعادا عدة أنصفته ومنحته حرية الانفتاح، حيث تصفه بكل أبعاده، ثقافته، أيديولوجيته، عاداته وتقاليده، كما أرادت أن تبلغ رسالة للآخر مفادها أن الرجل الصحراوي له أن يكون، وله أن يتميز، له أحقية الوجود.

وأخيرا: قد يسبق المتن الهامش كتابة، لكن العكس صحيح إذا ما تعلق الأمر بفهم مضمون النص قبل ولوجه، أي أن المتلقي يمكنه معرفة مبتغى الكاتب قبل أن يقرأ نصه، وذلك من خلال قراءة الهامش أولا، فقد أصبح يؤدي وظيفة فعالة يتفاعل معها القاريء الحذق ويتجاوب وتلميحات النصوص الموازية، فالكتابات السردية المعاصرة تحولت من النص إلى الهامش الذي أصبح بالفعل عتبة

لا يمكن تجاوزها لولوج النص والبحث في مكنوناته لقراءتها قراءة سليمة وجيدة تتوافق ومبتغى الكاتب.

مهمة الهامش إذن هي تهيئة الطريق للمتلقي كي يصل لمضمون النص بأمان.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

– الصديق حاج أحمد (الزيواني)، مملكة الزيوان، دار فضاءات، عمان، الأردن، ط1، 2015.

المراجع:

مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ط4، 2000. -.

-منوبي غباش، المثقف في مواجهة السلطة، مجلة مقاربات فلسفية، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر، ع04، جوان2015.

– موريس غودولييه، لغز الهبة، تر: رضوان ظاظا، دار الهدى، دمشق، ط1، 1998

-مصطفى أحمد قنبر، الإهداء دراسة في خطاب العتبات النصية، المركز الديموقراطي العربي، برلين، ألمانيا، ط1، 2020.

– عبد الله الغدامي، النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2016.

-عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، د ط، 2000.

- عيسى عودة برهومه، بلال كمال عبد الفتاح، سيميائية الإهداء دراسة في نماذج من الرواية العربية، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الإسكندرية، مج 4، ع 32، دس..

-صلاح صالح، الرواية العربية والصحراء، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،1996.

المعاجم:

–أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، مج:6، دار صادر، بيروت، لبنان ط1، 1990.

-مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم، مصر، دط، 1994.